

الأوضاع الاجتماعية للجزائر بين سنوات (1930/1830م)

الأستاذ الوناس الحواس
جامعة البويرة

شهدت الجزائر أوضاع إجتماعية مزرية منذ أن وطأت أقدام الاحتلال الفرنسي للأراضيها سنة 1830م والتي لم تختلف في تدهورها عن الأوضاع الثقافية والإقتصادية والسياسية والدينية، فقد سعت إلى تمزيق البنية الإجتماعية للمجتمع الجزائري وتدمير الروابط الأسرية والعلاقات العائلية وتشتيتها ونشر العداء والتقاليد الغربية بين أفراد المجتمع الجزائري من خلال الآفات الاجتماعية من خمر وميسر والزنا والمومسات والسرقة وغيرها من الآفات التي نخرت جسد المجتمع الجزائري، كما استهدفت النمو الديمغرافي من أجل عرقلت زيادته وهو ما ينعكس سلبا على المقاومة العسكرية وعليه فقد كان الوضع متدهورا في جميع المستويات الصحية، المعيشية، نمو السكان، وضعية المرأة، ويتجلى ذلك في السياسة الاجتماعية التالية.

نمو السكان :

عرف نمو السكان في الجزائر نموا بطيئا خلال فترة الاحتلال بل تراجع في بعض السنوات بسبب الحروب وتدهور المستوى المعيشي والصحي والهجرة نحو الخارج فقد قدر في سنة 1830م بـ 03 مليون نسمة¹، وفي سنة 1861م 2732851 وسنة 1866م

¹ - بن تركية، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، حويلات حيز التاريخ والجغرافيا، العدد 02، 2008م، ص 113، أحمد شقرون، دور الاحتلال الاستيطاني في سياسة فرنسا في الجزائر وفي تنظيم المستعمرات، مجلة المصادر العدد 17، ص 101.

وصل تعداد السكان إلى 2652072 ن خلال سنة 1872م 2125052 ، وعليه نجد أن عدد السكان قد تراجع، وبلغ عدد السكان سنة 1921م 1,4923000¹

وتذكر بعض المراجع أن عدد السكان مع بداية الاحتلال كان يقدر بخمسة ملايين وتناقص بـ 02 مليون ن سنة 1867م.²

الوضع الصحي: تميز الوضع الصحي بالجزائر خلال الفترة الاستعمارية بالتدهور وشيوع العديد من الأمراض المستعصية وهذا راجع إلى نقص الرعاية الصحية والهياكل من مستشفيات ومراكز صحية وصيدليات وأطباء وممرضين كما عمل الاستعمار على نقل أمراض إلى الجزائر مثل مرض الزهري، السل.³

كما انتشرت في الجزائر العديد من الأمراض المعدية والفتاكة رغم أن فرنسا كانت تتباهى بأنها تملك خيرة الأطباء في العالم مثل باستور، كلوديرنار، هذا الوضع الصحي المتردي أدى إلى انتشار الوفيات خاصة لدى الأطفال مما جعل أمل الحياة في الجزائر لا يتجاوز الخمسين سنة.

كان يولد 38 طفل لكل ألف جزائري يموت منهم من 20 إلى 25 طفل وقدر عدد الأموات من الأطفال في سن العامين في الجزائر العاصمة 44.60 في الألف وهذا بسبب نقص الرعاية الصحية والجهل.⁴

¹ - محمد العربي ولد خليفة، إشعاع الثورة الجزائرية وأبعادها الجيوسياسية، الدبلوماسية الجزائرية من 1820م إلى 1962م، م.و.د.ب.ح.و.ث.أ، ص 23.

² - نفسه، 23.

- abbes farhat : guerre et révolution d'Algérie: la nuit colonial éditions anep – reghaia alger 2^{eme} édition. Septembre 2006. P79-87.

- مراحل التحول الديموغرافي في الجزائر والعوامل المتحركة فيه، الباحث العدد 00، 2007، ص 184-186.

³ - د. يحيى بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، 1830م-1954م، ص 94.

⁴ - أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي الجزائر، 2009م، ص449.

ومع بداية القرن العشرين وصل عدد الوفيات 195 في الألف ما بين 1901-1904م بلغ عدد الوفيات بين سنوات 1910-1914م 87 ألف وبين سنوات 1920-1924م 101000¹.

لم يكن يوجد في القطر الجزائري إلا 15 مستوصف و103 طبيب سنة 1927م، وهو ما يعادل طبيب لكل 100 كم.

وخيرا لأدلة التي تثبت تدهور المستوى الصحي في الجزائر هي الإحصائيات الواردة من مكاتب الخدمة العسكرية التي رفضت آلاف الجزائريين بسبب تدهور وضعهم الصحي.

سنة 1927م استدعت فرنسا الشباب الجزائري للخدمة العسكرية.

أ- عمالة الجزائر: من مجموع 18607 وجدت 8268 لا يليقون للخدمة العسكرية.

ب- وهران: سنة 1923م استدعيت 14642 ووجدت 5446 لا يليقون للخدمة العسكرية، من مجموع 125 ألف مدعوون للخدمة العسكرية أجل منهم 55 ألف وأعفي 25 ألف أي ما يزيد عن 64% غير صالحين* رفضت الأعداد السابقة من الشباب الجزائري بسبب ضعف الجسم وانحطاط القوى وأمراض العيون، السل، الزهري، حمي البحر المتوسط وغيرها² وصنفت الجزائر بين سنوات 1830م-1900م من أحط المستويات في العالم³ عرفت الجزائر سنوات عجان ميزها الجفاف، القحط، المجاعة، والأمراض بين سنوات 1867م-1869م فقد فيها الجزائريون أكثر من 1 مليون ن.⁴

¹ - مراحل التحول الديمغرافي في الجزائر والعوامل المتحكمة فيه، مجلة البحث العدد 00، 2007م، ص 192.

² - المدني، حيلة كفاح، ج2، ص 448.

³ - د. رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط5، 2001، وت.ن.أ، ص 45.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر المقاومة والتحرر (1830-1962م)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007م، ص 82.

- المدني، المرجع السابق، ص 96.

ففي عمالة قسنطينة خلفت المجاعة 160 ألف متوفي وفي عمالة الجزائر 100 ألف وفي وهران تجاوزت 100 ألف وتذهب بعض المراجع مثل ما ذهب إليه بشير بومعزة أن المجاعة خلفت ما بين 20 و26% من سكان الجزائر.¹

كما عرفت الجزائر سنوات الجراد 1845م-1847م وسنوات الكوليرا 1849م-1850م وزلزال 1867م الذي ضرب الشلف، الشقة، العفرون، هذه الكوارث والآفات والأمراض أدت إلى أزمات اجتماعية حادة ودفعت بالسكان إلى أكل الفطريات وقشور الأشجار والأوراق وأصبح الناس يموتون في الطرقات وتآكل جثثهم الذئاب والضباع، وانتشر الإسهال والجدي وأمام هذه الكارثة الاجتماعية لم تحرك السلطات الاستعمارية ساكنا.²

هذا الوضع أدى إلى ارتفاع الأسعار وفقدان الجزائريين لمصادر عيشهم من زراعة وقطعان ماشية، وعليه فقد الجزائريون نصف الماشية مقدرة بـ 13 مليون رأس سنة 1867م و8 ملايين رأس سنة 1870م وانخفض إنتاج القمح الصلب من 87% إلى 81% والقمح اللين من 20 إلى 11% كما ارتفعت الأسعار للمواد الغذائية من قمح والشعير وتهافت أسعار الماشية فalcنزة بـ 5 فرنك والكبش بـ 7 فرنك والبقرة بـ 30 فرنك والشور بـ 25 فرنك.³

* د. جمال قنان، الكفاح الوطني ردود فعل الاحتلال في الفترة ما بين الحربين 1919-1939م المصادر، العدد 13، 2005، ص 62.

¹ - بشير بومعزة، الاستعمار جريمة ضد الإنسانية...جريمة حرب، مجلة المصادر العدد 3، 2000م، ص 16.

² - محفوظ قداش، جزائر الجزائريين، تاريخ الجزائر (1830/1945م)، ترجمة محمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار، روية، الجزائر، 2008م، ص 171-176.

- عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900) دم.ج، 2007م، بن عكنون الجزائر، ص 104.

³ - مزيان سعيدي، النشاط التنصيري للكردينال لافيغري (1867/1892م)، ط1، دار الشروق للطباعة والنشر

والتوزيع، الجزائر، 2009 ص ص 280-282.

- نفاذ سيد أحمد، الأسرة الجزائرية أثناء الاحتلال الفرنسي، المصادر العدد 13، 2006م، ص 181.

ساهم هذا الوضع في انتشار الآفاق الاجتماعية كالكحول والإجرام والانحطاط الخلقي والزنا والدعارة وانتشرت البغايا والمومسات¹ وقطاع الطرق.

كما انتشرت البطالة بسبب انعدام فرص الشغل وغلق الاستعمار لجميع منافذ العمل فالجال الوحيد لعمل السكان هو الزراعة أو الخماسة بأجنس الأثمان.

السكن: إن البنايات الضخمة والقصور الشالخة في الجزائر العاصمة وكبرى المدن كان يسكنها المعمرون وحتى في القرى أقام المعمرون سكنات لائقة وكانوا لا يعرفون أزمة السكن وبالمقابل نجد عند الجزائريين أزمة سكن حقيقية بالمقارنة للزيادة الطبيعية للجزائريين من 150 إلى 200 ألف ن سنويا وكانت مساكن الجزائريين من طوب وتراب وقصب وحجارة وقش وجلد وديس وصفيح.²

كما توجه الجزائريون نحو المدن وأحاطوها ببيوت قصديرية غير صحية.³

وضعية المرأة: إن وضعية المرأة قبل سنة 1930م لم تكن أحسن حالا من وضعيتها السياسية فالخن والآفاق وسنوات الجفاف والجاعة والأمراض والوفيات والجوع قد دفعتها هذه الأوضاع للعمل لدى المعمرين كخادمة بأجور زهيدة خاصة في حالة وفاة الزوج أو غيابه فهذه الظروف الصعبة هي التي حتمت عليها الخروج من البيت كما سعى الاستعمار الفرنسي إلى تمسيح وتنصير المرأة الجزائرية خاصة الكاردينال لافيغري.⁴

إنه من النادر وجود امرأة مثقفة بين سنوات 1830-1930م نظرا للظروف الصعبة التي كان يمر بها المجتمع الجزائري بالإضافة إلى العادات والتقاليد كما اهتم العديد من الكتاب الجزائريين في هذه الفترة بوضعية المرأة وحاولوا إصلاح بعض المعتقدات

¹ - أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 114.

² - بوعزيز، المرجع السابق، ص 92.

- المدني، المرجع السابق، ص 111.

³ - أحمد شقرون، دور الاحتلال الاستيطاني في سياسة فرنسا في الجزائر وفي تنظيم المستعمرات، مجلة المصادر العدد 17، 2008م، ص 120.

⁴ - أ. يمينه بشي، مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال، مجلة المصادر العدد 03، 2000م، ص 216.

الفاصلة التي انتشرت في وسط النساء الجزائريات من هؤلاء الكتاب نجد عبد القادر الجاوي في كتابه " اللمع على نظم البدع " ومحمد بن أبي شنب، محمد بن مصطفى خوجة، عمر بن قدور، ومن النساء من قاومت الاستعمار بالسلاح مثل: فاطمة لالانسومر¹، ومنها من قادت الزاوية مثل زينب بنت محمد بن أبي القاسم².
ومن السياسات الاجتماعية التي فرضتها فرنسا ما يلي:

- تغيير الأسماء: فقد فرض قانون 1873م اسما عائليا لكل مالك وتم التصويت على القانون سنة 1882م الذي تضمن وجوب بطاقة التعريف مع الاسم العائلي وطبق هذا القانون من طرف موظفين عنصريين لأن الأسماء التي أعطيت للجزائريين المسلمين كانت مهينة من أسماء فرنسية وأسماء عربية لحيوانات: شادي الذي يعني قرد، رأس الكلب، الفرطاس، العقون، بغض النظر عن الأسماء الفاحشة وقد ساهم هذا القانون المعروف بقانون الحالة المدنية في تفكيك العلاقات الاجتماعية، إذ لم تكن الألقاب الجديدة مطابقة لها (علاقة القرابة)، هناك أشخاص ينتمون لنفس العائلة أعطيت لهم ألقابا مختلفة³.

سعت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى عزل المناطق ومنعها من الاتصال مع مناطق أخرى خاصة منطقة القبائل حيث شجعت الميول الجهوية وذلك بالاهتمام بالأعراق والتقاليد والفلكلور واللهجات على حساب الثقافة العربية الإسلامية وتعويضها بالعرف والعادات وحولت المعاملات اليومية من اختصاص القاضي المسلم إلى سلطة قاضي الصلح الفرنسي وألغت مجالس الجماعة التقليدية سنة 1882م وعوضته بموثقين وقاضي

¹ - سيدي موسى محمد الشريف، مقاومة فاطمة لالا نسومر، الاستعمار الفرنسي وكفاح المرأة الجزائرية، م.و.د.ب.ج.و.ف.أ، 1954م، ص 29.

² - وفاء بن علي، زاوية الهامل وعلاقتها بالمقاومة الشعبية والثورة الجزائرية، رسالة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة، الجزائر (2007/008م)، ص 70.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1954/1830م)، ج 6، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2007م، ص 341.

³ - قداش، المرجع السابق، ص 244.

- صالح عباد، الجزائر بين فرنسا والمستوطنين (1930/1830م)، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، ص 175.

الصلح المدني سنة 1889م¹، كما حاول الاستعمار الفرنسي التفريق بين الجزائريين بخلق قبائل عرب وأمازيغ وقد ركز على عنصر الأمازيغ خاصة منطقة القبائل تيزي وزو وبجاية وسعى من وراء هذا إلى تدمير البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمع الجزائري وخلق واقع اجتماعي لا يمت بصلة للمقومات الأساسية للشعب الجزائري²، وبذلك طبق الاستعمار الفرنسي فكرة " فرق تسد " من أجل تمزيق وحدة الجزائريين وجعلهم يتناحرون فيما بينهم بين سكان المدن والأرياف وبين الأتراك والكراغلة والعرب وبين العرب والبربر وبين سكان الشمال والجنوب وبين المذاهب الفقهية الإسلامية الإباضية والمالكية والأحناف وبين الطرق الصوفية الرحمانية القادرية التيجانية، الدرقاوية العلوية وبين الشرق والغرب والوسط وبين العائلات الكبيرة والصغيرة.³

إن الأوضاع المزرية وهذه السياسة الممجية التي اتبعتها فرنسا في الجزائر بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية والطبيعية والاجتماعية من مجاعات سنوات 1867-1868م وجفاف وقحط وقلة المحاصيل دفعت الجزائريين بالهجرة نحو الخارج خاصة:

أ- نحو بلاد الشام: منها سوريا حيث بلغ عدد المهاجرين الجزائريين في النصف الثاني من القرن 19م 20 ألف مهاجر خاصة سنوات 1888م، 1890م، 1896م، 1911م⁴، ومما

¹ - ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وأفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال مفاهيم تاريخية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ص 89.

² - نفسه، ص 91.

³ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 303.

- عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، برج الكيفان، الجزائر، 1995م، ص 21.

⁴ - د. عمار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847م-1918م) د.ه.ط.ن.ت، الجزائر، 2007م، ص 167.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 367.

- جمال قنن، مظاهر ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1994م، ص 164.

- نادية طرشون، الهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام، هجرة أحمد بن سالم وجماعته عام 1867م، مجلة الرؤية العدد 3، 1997م، ص 167.

شجع توجه الجزائريين نحو بلاد الشام هو وجود الأمير عبد القادر بدمشق وفتح الدولة العثمانية مكتبا خاصا مهمته تهجير أكبر عدد ممكن من المغاربة.¹

ب- نحو الحجاز: بحكم وجود أماكن مقدسة إسلامية كمكة والمدينة توجه الجزائريون إليها بداية من سنة 1893م وقدر عدد المهاجرين الجزائريين في المشرق العربي سنة 1910م 17500 مهاجر.²

ج- نحو فرنسا: تعاضمت الهجرة الجزائرية نحو فرنسا خاصة بعد الحرب العالمية الأولى حيث بلغ عدد المهاجرين 270000 مهاجر عملوا في التجهيزات العسكرية ومعامل الذخيرة والمواصلات والمناجم.³

وقد انجر عن هذه زواج مختلط وعند عودة هؤلاء المهاجرين من فرنسا لاستقرارهم في الجزائر أدى إلى نشر عادات وثقافات جديدة حتى وسط العائلة الواحدة وهو ما يسمى بتفكيك البنية الاجتماعية، كما تمرد هؤلاء المهاجرون عن العادات والثقافات التي ورثوها من وسطهم العائلي.⁴

في الوقت الذي كانت تعرف فيه الجزائر هجرة أبنائها كان بالمقابل تشهد تطور استيطاني وتوافد للمعمرين ومن المنهزمين في الألزاس واللورين الذين بلغ عددهم 45000 مستوطن مهاجر سنة 1884م وسخرت لهم فرنسا كل الإمكانيات وذللت لهم كل الصعاب والقوانين التي تستقطبهم وتشجعهم على الهجاء إلى الجزائر وقد بلغ عدد المستوطنين الأوروبيين سنة

¹ - هلال، المرجع السابق، ص 18.

- بوعزيز، المرجع السابق، ص 201.

² - هلال، المرجع السابق، ص 52-53.

- د. أحمد صاري، دور المهاجرين الجزائريين في الثورة التحريرية الكبرى، مجلة المصادر العدد 1، 1999، ص 239.

³ - عبد الحميد زوزو، الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحريين 1914م-1939م، دم.ج، 2007، ص 15.

- قداش، المرجع السابق، ص 157-159.

⁴ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة 2007م، ص 70-71.

1920م 725000 مستوطن¹، وقد كان هؤلاء المعمرون مدمنون على الخمر وحياة الدعارة وأخلاق منحلة مما ساهموا في انحلال المجتمع الجزائري الذي ظهرت في موبقات خطيرة نتيجة هذه العادات الغربية المنافية للأداب الإسلامية والتي انتشرت بسرعة وقد شجع الاستعمار على زراعة الكروم وخصص لها مساحات لتشجيع مشرب الخمر²، كما انتشرت الزنا والدعارة والجنس وتحطيم الهوية الجزائرية وقد أقامت فرنسا لها أماكن مخصصة لاستقبال العاهرات وسط الأحياء الشعبية التي يسكنها الجزائريون وبالقرب من المساجد³ دون مراعاة لمشاعر المسلمين ومقدساتهم الدينية وهذا ما يذكره الأستاذ " أحمد مريوش " " أما الدعارة فقد نشرتها فرنسا كالوباء في كل حي دون مراعاة لحرمة الأوساط العائلية الشريفة ولا احترام لقدسية الأماكن الطاهرة حتى بات جامع سيدي رمضان تحيط به بيوت العاهرات إحاطة السوار بالمعصم⁴."

وقد كتب عمر راسم عن انتشار الآفات الاجتماعية في جريدة ذو الفقار الصادرة عام 1913م ما يلي: " كيف يكون المسلم مسلما في بلد خلت مساجده من الراكعين الساجدين وامتألت شوارعه باللصوص والتجار والسكران....والانسلاخ من الدين والتظاهر بالفحشاء وتقليد الكافرين، كيف يكون المسلم في بلد انتشر فيه الربا والسلب والنهب..."⁵.

¹ - سعيدوني، المرجع السابق، ص 32.

- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، ط2، دار الغرب الإسلامي، 2005م، ص 160.

- زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، ص 154.

- حلوش، المرجع السابق، ص 61.

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990م، ص 97.

- قداش، المرجع السابق، ص 237.

² - يمينه بن رحال، الشيخ أبو اليقظان إبراهيم ابن عيسى وقضايا عصره، رسالة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة،

بوزريعة، 2004م-2005م، ص 52.

³ - مريوش، المرجع السابق، ص 115.

⁴ - نفسه، ص 115.

⁵ - محمدعلي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المطبعة العربية، الجزائر، 2007م، ص 95.

لقد سخرت فرنسا جميع امكانياتها المادية والبشرية لتدمير البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري منذ دخولها للجزائر وكان الهدف من وراء ذلك هو فرنسة وتغريب الجزائريين والقضاء على مقوماتهم الثقافية من دين ولغة وعادات وتقاليده وروابط أسرية وعلاقات اجتماعية، لكن هذه السياسة الاجتماعية التي انتهجتها فرنسا الإستعمارية اصطدمت بمقاومة جزائرية تبنتها الجمعيات والنوادي الثقافية والزوايا والمدارس القرآنية والكتاتيب والعلماء الذين سخرُوا إمكانياتهم المادية والبشرية من صحف ومجلات وجرائد وخطب وتكوين لشباب الجزائري الذي حمل راية التحرير وفجر الثورة التحريرية الكبرى التي انتهت باستقلال الجزائر سنة 1962م.